الرتيلاء

للقصصي البلغاري إيلين بيلين
بقلم الأستاذ اسكندر كرباج

يشتهر (مالو) بمهارته في العزف على الرباب ، ومساهمته في كل حفلة غنائية موسيقية يرصد ريعها لمعاهد البر والإحسان . وعندما كان هذا الفنان يحتضن ربابه ، ويأخذ في مداعبة أوتاره بقوس ، البساقة ، عازفاً عليه أنشودة شعبية ، أو كلاسيكية ، كان الرباب بين يديه بصورة مؤثرة تحرك أعشار القلب

وكان لمالو مزرعة كبيرة في إحدى مناطق هذه الولاية ، فكان يقصد إليها من حين إلى آخر ، تارة للاستراحة من ضوضاء المدينة وجلبتها الصاخبة ، وطوراً للاشراف على أعمال الحصاد . وكان في مثل هذه الأسفار يحمل ربابه معه ليتسلى بالعزف عليه في الليالي الموحشة

في ليلة من ليالي المزرعة ، بينما هو في قاعة الطعام ، وقد استولى عليه الملل من وحدته وانفراده ، تناول ربابه وراح يعزف عليه لحناً شجياً أودعه كل ما في نفسه من حساسية الفن ، وما في قلبه من رقة العاطفة . وفيما هو كذلك ، وقد غاب من عالم الحس ، وقع نظره فجأة على رتيلاء سوداء اللون كبيرة الجسم ، كثيرة القوائم ، هائلة المنظر ، كانت على مسافة قصيرة منه ، وقد جمدت في مكانها وكأنها تصغي إلى نغمات ربابه . فأجفل لرؤيتها وتحفز من مكانه ليدسحقها بقدمه . ولكنه ما كاد يتوقف عن العزف وينقطع صوت الرباب ، حتى أبصرها تنسحب مسرعة وتتوارى في شق كان بين الجدار وأرض القاعة . فقبض على قطعة من الخشب ولبث منتظراً ظهورها ثانية ليقضي عليها . إلا أن الرتيلاء ظلت طول مدة انتظاره متوارية في شقها المظلم . ولما عيل صبره عاد إلى احتضان ربابه ومتابعة عزف ألحانه

وما كادت نغمات الرباب ترتفع في فضاء القاعة ، حتى ظهرت ذات اللون الأسود ، والقوائم العديدة ، والمنظر المخيف ، وراحت تتقدم نحوه ، حتى إذا صارت على بضع خطوات منه ، وقفت وعلائم الانسحار بادية عليها . فلما أبصرها مالو توقف عن العزف واستعد للقضاء عليها بضربة مسددة من خشبته . ولكنه ما كاد يلقي الرباب من يده ، ويتحفز للهجوم عليها ، حتى انسحبت

الرتيلاء من الهوام أنواع وهي منها العنكبوت

شيء من التردد ، وتوارت في شقها . وبعد قليل من الانتظار عاد مللو إلى مداعبة أوتار ربابه ، وعزف ألحانه . وقد أعيد تمثيل هذا الدور مرارا ، أي أن الرتيلاء كانت لا تكاد تسمع صوت الرباب مرتفعا في فضاء القاعة ، حتى تبرز من مخبئها وتأخذ في التقدم نحوه كأن فيه قوة خفية تجذبها إليه ، ولا يكاد ينقطع الصوت حتى تعود إلى التواري في شقها

دهش مللو لأمر هذه الرتيلاء الغريب . وبات لا يرى في منظرها ما يخيفه . وقد ألف رؤيتها وأصبح مشوقا إلى معرفة ما إذا كان لنغمات ربابه تأثير عليها . وأخيرا انصرف إلى فراشه دون أن يخامره أقل خوف أو قلق من وجود تلك الحشرة السامة داخل بيته وعلى مقربة منه

قضى اليوم التالي بين مراقبة العمال والتجول على ظهر جواده في كل أنحاء المزرعة . ولكنه لم ينقطع لحظة عن التفكير في الرتيلاء والتساؤل عما إذا كانت ستظهر في المساء لدى سماعها نغمات الرباب كما ظهرت في الأمس ، أو أن ما حدث في تلك الليلة كان من قبيل الصدف

ما صدق مللو أن توارت الشمس وراء خط الأفق ، ونشر الليل رداءه القاتم على الكون ، حتى عاد مسرعا إلى البيت . وأول عمل باشره بعد فراغه من تناول طعام العشاء ، هو احتضان ربابه والعزف عليه بفن وشغف قائلا لنفسه : لنر ما إذا كانت ستظهر في هذه الليلة . وكان يعزف في هذه المرة بشيء من التأثر البادي في اضطراب أعصابه وخفقان قلبه كما لو كان يعزف على المسرح أمام الجمهور . وكان يحرك بأنامله أوتار الرباب وعيناه شاخصتان إلى الشق حيث تبرز الرتيلاء

لم تمر دقائق قليلة على ارتفاع نغمات الرباب في فضاء القاعة ، حتى خرجت الرتيلاء من شقها وراحت تبدي انسحارها بتقدمها البطيء . وأراد مللو أن يكمل تجربته فتوقف عن العزف ليرى ما سيبدو منها . ولما ساد عليها السكوت انسحبت إلى شقها بصورة هادئة كئيبة

بعد تلك التجربة وثق مللو من انسحار الرتيلاء بنغمات ربابه ، وأصبح العزف لها في كل ليلة من أحب الأعمال إليه ، وأصبحت رؤيتها من أجمل المشاهد في نظره . وبلغ من شدة شغفه بها أنه أهمل التفكير في مغادرة المزرعة والعودة إلى المدينة . ولكثرة ما تحدث عنها أمام العمال والموظفين وغيرهم من الزوار ، ذاع أمرها في كل تلك الأنحاء ، وأخذ سكان المدن القريبة يتوافدون إلى مزرعة مللو لرؤية ذلك الحيوان المخيف الذي يطرب لنغمات الموسيقى كسائر

البشر . وكانوا يعجبون أكثر بإلقائها بعد عزف أنشودة شعبية ، أو قطعة كلاسيكية ، جامدة في مكانها كأنها لا تزال سكرى من سماع تلك النغمات المتآلفة والأنات المتوازنة . وكانت تطرب بنوع خاص لأغرودة « كافورتاده تاريكا » فكان مللو ، وقد لحظ منها ذلك ، يودع هذه القطعة كل إحساسه الفني وشعوره الفياض

وقد بلغ من شدة هيام مللو بضيفته المسالمة أنه اتخذها رفيقته ونديمته ومسليته في وحدته . وكان كلما خرجت من شقها للاستمتاع بسماع نغمات ربابه، يصيح قائلا كأنه يرحب بأعز الناس عنده : أهلا بك: وليس ذلك فقط بل إنه وضع لها اسما شاعريا كان يدعوها به تحببا . حتى أن ألفتهما قضت على ملل حياته في تلك المزرعة النائية . فكان ورفيقته الصامتة الخرساء على تفاهم كلي ، وتآلف عز نظيره حتى بين البشر

ولما حان ميعاد رجوعه إلى العاصمة استولى عليه حزن وآلمه التفكير في مغادرة تلك الرفيقة الأمينة ، والصديقة الصدوقة ، والوحشة التي ستعانيها وتشعر بها بعد انقطاعها عن سماع ألحان ربابه . واشتد به الحزن لدى تفكيره في استحالة نقلها معه

وفيما هو على هذه الحال من الحزن والكآبة والتردد في مغادرة المزرعة، زاره أحد مفتشي شركات تصدير البن ، فحل ضيفا عليه . وفي المساء أخذ المفتش يقص على مضيفه أخبار سوق البن وإقبال موسمه في ذلك العام ، والأرباح الطائلة التي سيجنيها المزارعون من ارتفاع أسعاره في البنادر الأجنبية . ومع ما لهذا الحديث من الأهمية في نظر أصحاب مزارع البن ، فقد مل مللو لصرفه إياه عن العزف لصديقته ورفيقته الليلية . لذلك اغتنم فرصة توقف ضيفه عن الكلام ، وقبض على ربابه وراح يعزف عليه أحب الألحان إلى قلبه وقلبها زنيلاته

ثم مرت بضع دقائق على ارتفاع صوت الرباب حتى برزت من شقها ذات اللون الأسود ، والقوائم المدببة والنقار الخيلاء وراحت تتهادى في سيرها كأنها في حالة طرب ، فما إن وقعت عليها عينا الضيف حتى علت وجهه صفرة الخوف ، وبأسرع من لمح البصر تقدم منها وسحقها بحذائه الغليظ قبل أن يسمع صيحة الذعر تنطلق من فم مضيفه ، فالتفت إليه هذا وقال له : أنظرت أي خطر نجونا منه !

سكندر شريانج